مقاربات نسقية في سورة الحجرات

أ.م. د. زينب علي عبيد

جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الانسانية

Zainb.hum2016@gmail.com

الخلاصة

إن الخطاب القرآني خطاب عالمي موجه إلى الناس كافة، إذ هو الفضاء الروحي والفكري الذي صاغ هوية الحضارة الإسلامية العربية، بما فيه من معانٍ وقيم عظيمة، لذا آثر البحث رصد المقربات النسقية في سورة الحجرات لما في هذه السورة من تشكلات ثقافية تتيح قراءة الخطاب القرآني من منظور مفاهيمي موجه إلى الآخر. ورصد أهم المفاهيم الفكرية والثقافية ودورها بوصفها أداةً تواصلية تبليغية، تروم إلى تشريع القوانين الإنسانية والأخلاقية. فتقسم البحث إلى:

أولاً: التعريف بالسورة

ثانياً: مقاربات النسق والأحكام الشرعية

ثالثاً: مقاربات النسق وقوانين التعايش

الكلمات الدالة: الحجرات–القرآن–النسق

Abstract

The Qur'anic discourse is a universal discourse addressed to all people, as it is the spiritual and intellectual space that shaped the identity of the Arab Islamic civilization, with great meanings and values. The research therefore sought to monitor the contextual references in Surat Al-Khorat. A conceptual perspective addressed to the other. And monitor the most important intellectual and cultural concepts and their role as a communicative communication tool, aiming at the legislation of humanitarian and moral laws. The search is divided into:

First: the definition of the surah

Second: Approaches of the Sharia and the Shari'a

Third: Approaches of the pattern and laws of coexistence

أولاً: التعريف بالسورة

سورة الحجرات من السور المدنية، تتكون من ثماني عشر آية، تقع بعد سورة الفتح، ورتبتها في معظم اللوائح ٠١٠٦ موضوعها آداب السلوك مع الرسول (y) في مجالسة وعند مناداته[١].

وقد تضمنت هذه السورة حقائق كثيرة من حقائق العقيدة والتشريع، والوجود الإنساني، وأساس التعامل مع القانون التشريعي والقانون البشري[٢]. وإيجاد الحلول لأغلب المشكلات التي تواجه المؤمن وغير المؤمن لكي تمارس الأمة دورها النفعوي للبشرية جمعاء، بحيث تنشر قيم الإسلام والتسامح بين الناس.

ورد أسباب النزول في كتب التفاسير أنه "قدم ركب من بني تميم على النبي (ص) فقال ابو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال ابو بكر: ما أردت الاخلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فانزل الله هذه السورة"[٣]. وأياً كان أسباب النزول فان نص الخطاب القرآني واضح وموجه وأزلي لا يرتبط بزمان ومكان لذا فان من واجب البحث رصد أهم الأنساق الظاهرة والمضمرة في الخطاب القرآني بوصفه خطاباً عالمياً موجهاً للبشرية جمعاء.

فالسورة تعكس واقعاً جديداً هو واقع المدنية. والمدنية مجتمع متحضر، تسود فيه تقاليد مدينية (رقة الحضارة) مثل تبادل الاحترام مع المراوغات والمناورات. اما الاعراب فسلوكهم مطبوع بـ "خشونة الحضارة" لذا فأن هذه السورة تضع

القوانين التي تنظم المجتمع المدني والبدوي بسلوكيات إسلامية جديدة[٤]. ومن تمام الأدب والأخلاقيات الإيمانية اكتشاف صيغة وإطار يظم البشرية جمعاء تحت مظلة السلم والتجانس وفق نسق حضاري يتناغم مع الناس جميعاً.

أولاً: مقاربات النسق والأحكام الشرعية

تتجه السورة بشكل أساس إلى توجيه خطاب مخصوص إلى آخر نسقي، وعند فحص بنية النص القرآني يستشعر القارئ أن هناك مسارين للسلطة الدلالية النصية، الأول يتمحور في البنية الخارجية للنص وتتمثل في الخطاب الموجه من الذات العليا (الله جل وعلا) إلى الآخر النسقي { يأيُّها الذين ءامنوا} [٥] والثاني يتشكل في بنية النص الداخلية من خلال حركة الدال والتحليلات اللفظية والمعنوية الداخلية للنص بوصفها صياغات تسهم في كشف عما ورائية اللغة والتراكيب.

فالبنية الخارجية للنص لا تتعارض مع البنية الداخلية وإنما تتناغم معها وتتكامل معها فالخطاب القرآني ذو سلطة تتحكم في النص وتوجهه إذ جعلت من الخطاب يتموضع إلى بُنى تحيل إلى انساق ذات مدلولات تشخص أحكام تشريعية لا يمكن المساس بها وقوانين للتعايش السلمي في المجتمع.

فالخطاب الإلهي بـ { يأيُّها الذين ءامنوا} وهو تشريف للآخر وتكريم له وهذا من مقتضيات الإيمان.

فبنية الخطاب القرآني في السورة قائمة على النداء بـ "يا أيها الذين آمنو/ يا أيها الناس" فالأول نسق مخصوص والثاني نسق العموم إلا أن الأول آني مقصود لآخر معين والثاني مؤجل بشكل لا نهائي فهو دال يقود إلى غيره من الدوال في النظام الدلالي اللغوي لتكون المحصلة النهائية لبنية السورة أنه خطاب خاص للمؤمنين ولغيرهم. ألا أن الأفضلية في التقديم للآخر المؤمن وهذا يكشف أن هناك مدلولات مرجئة لاحقة من اجل بلوغ عتبة المعنى.

أراد النص توجيه خطاب لفئة معينة فالسورة مدنية[٦] نزلت في العام التاسع للهجرة اي بعد مرور الاسلام بمراحل متعددة، وقد ميز الله ورسوله (ص) [٧] المؤمن الحق من المنافق لذا فان عملية التمحيص قد جرت وتبين المؤمن من غيره. والخطاب هو خطاب تأديبي تربوي يشمل (المؤمنين/ الناس) إلا ن الأول له الأسبقية في التشريف بوصفهم مؤمنين ف (يا أيها) للتنبيه اي ان هناك أمراً عظيماً يستدعي الانتباه. وبما أن سورة الحجرات ذات بنية داخلية منهجي لا تنفصل عن بنية القرآن الكريم الكلية، لان "لهذا الدين حقيقة ومنهجه لعرض هذه الحقيقة، والمنهج في هذا الدين لا يقل أصالة ولا ضرورة عن الحقيقة فيه... وعلينا أن نعرف الحقيقة الأساسية التي جاء بها هذا الدين. كما علينا ان نلتزم المنهج الذي عرض به هذه الحقيقة"[٨] لذا فالخطاب يوثق قاعدة عامة ينبغي (للمؤمنين) الالتزام بها قال تعالى{ يأيُّها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميعٌ عليم} [٩] وقال تعالى: {يأيها الذين ءامنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النّبي} [١٠] الملاحظ إن بنية السورة الداخلية تتمحور في مركز من الثنائيات المتقابلة (لا تقدموا/ لا ترفعوا) فالنهي عن التقدم والرفع هو سلطة نصية تحكم بنية السورة الداخلية لذا فهي تموضعت خلف نداء مخصوص يحظى بشرف التقديم والأسبقية النصية كما ويحظى بتشريف المعنى. وهذه جميعاً تمارس سلطة دلالية على الآخر (المؤمن) مع إرجاء وتأجيل ذكر (ألناس) فهي دعوة للناس كي يدخلوا في بؤرة الخطاب الذي له الأسبقية قال تعالى: {يأيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى} [١١] وثم قوله سبحانه: { قالت الاعرابُ ءامنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} [١٢] فهو مسوغ لهذه التأجيل بأنهم خارج نسق وهي إشارة إلاهية مقصودة في التعامل مع غير المؤمنين من الناس كافة.

فالقاعدة التشريعية (لا تقدموا/ لا ترفعوا) تمارس سلطة نسقية تتفرع منها كل التشريعات الأخرى وهي ان لا بديل لنظام ومنهج الله سبحانه وبمجرد إيجاد البدائل لذا النظام المحكم فانك (قدمت) لان الرسول (y) يتلقى عن ربه فان قدمت امام الرسول فانك قدمت امام الله{ وما ينطق عن الهوَى ۞ إن هُوَ إلا وحىٌ يوحى} [١٣] وقوله سبحانه { لاترفعوا أصواتكم}[١٤] فلفظة الصوت المقصودة لا بمعناها (الفيزيائي) القريب فحسب وإنما إلى معنى تأديبي عميق "لا يختلف عن معنى (لا تقدموا) التي تدعمها الآية القرآنية { وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكونَ لهُمُ الخيرةُ مِن أمرِهِم} [١٥].

وقد بدأت بالخطاب المخصوص نفسه (المؤمن) فالثنائية النسقية تكون بمعنى "لا تفعلوا فعلاً وضعياً من عند أنفسكم في مسألة بينها الله ورسوله، بمعنى انصاعوا في أفعالكم لما بينه الله ورسوله" [١٦] فالآية (١) و(٢) من السورة تؤسس مركزاً دلالياً لما سيأتي ذكره من خلال ممارسة سلطة داخلية تحكم سياق الآيات اللاحقة فالثنائية (لا تقدموا/ لا ترفعوا) التوافقية تمارس دور الفاعل والمفعول بالوقت ذاته لسحب المعنى إلى جانب المتلقي وهذا مرهون بما أنتجه النص ببنائه وانتظام تراكيبه ليظهر تشكل النسق بالشكل:

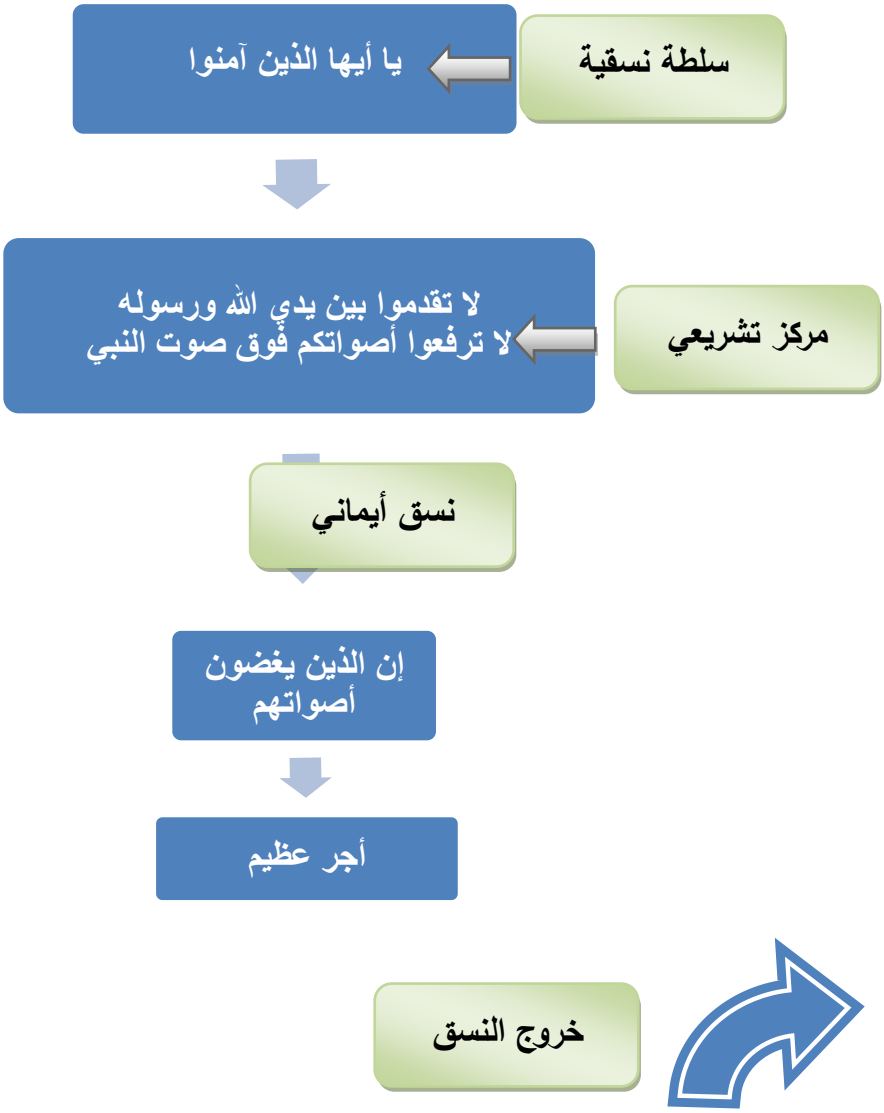

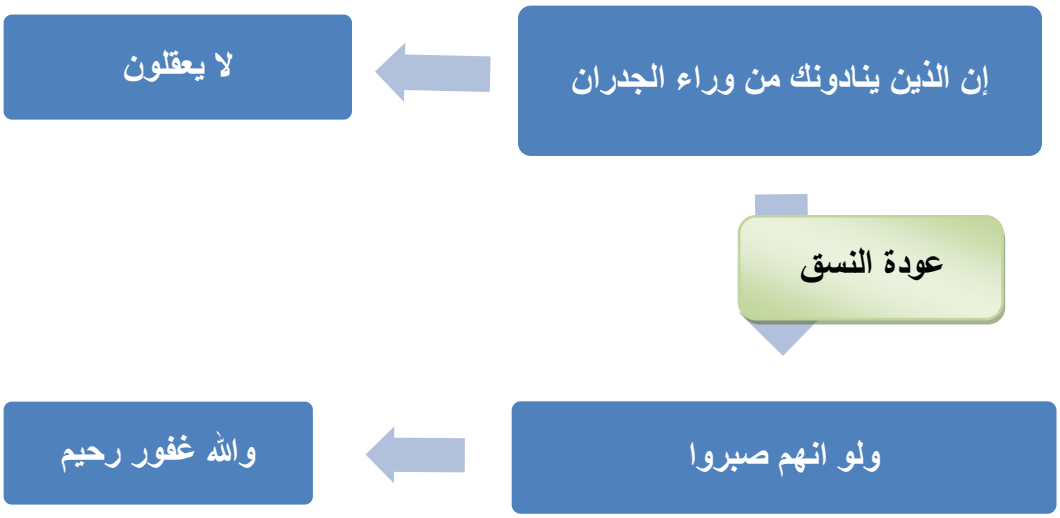

فتشكيل القاعدة الإلهية تخضع جميع الأنساق المتوالية للمركز (الله ورسوله) ومن ثم فأن عملية الإخضاع هذه تحيل إلى اختزال كل التنافرات والصراعات التي حدثت وما زالت تحدث عند من وُجِه إليه الخطاب (يا أيها الذين آمنوا)[١٧] وتحويل مسار السلطة الدلالية من الدال (النص) إلى المدلول (الله سبحانه ورسوله (ص)) وهو النسق العام أو المركز لأدب العلاقات والتعامل مع الرسول (ص) بوصفه أساس التشريع، فهي "تصور لنا درجة عليا من درجات السمو في سلم الرسالة والنبوة وهي أن يضع المؤمن أفكاره وتصوراته (صوته) خلف ما جاء به الرسول (ص) بحيث يكون تبعاً لما جاء به الرسول (ص)"[١٨].

فلا بد من التأدب في التعامل مع رسول الله (ص) لان إساءة الأدب مع الرسول (ص) مدعاة للتفرقة والنزاع والخلاف لذا فهو مركز الآداب والعلاقات والتعامل مع الآخر. والأدب معه (ص) مقتضي لاجتماع الكلمة لان لديهم مرجعاً يرجعون إليه. وقد وصف الله تعالى النبي بصفة عظيمة وهي (رسول الله) فالله أرسله إليكم والرسول وزن مبالغة من الرسالة ويطلق على الرسالة وعلى حاملها فهدفه (ص) هو إنقاذ البشرية من التشتت والتفرقة لإخراجهم من الظلمات إلى النور. فالرسالة هي السابقة لكل أوصافه وأهمها. وهي تعزيز لمركزية التشريع فلا يجوز للمؤمنين أن (يقدموا) و(يرفعوا أصواتهم) امام صاحب الرسالة الإلهية. فتكرار (رسول الله) إنما هو اختزال كل الثغرات الأخرى التي تحيط بالآخر والدخول في حصن محكوم بتشريع مغلق ليتأدب المؤمنون بأهم الآداب كي يعطي للآخر (الذين امنوا) منزلة فاعلة تمكنهم من ممارسة دور النموذج الذي يتمحور حوله الخطاب في السياقات الاجتماعية التي تنظم العلاقات بينهم.

فالآيات الأول ينظر لها نسقياً على أساس ان لا "تكونوا متقدمين في شيء من الأشياء والله يقول الحق ويهدي السبيل، ورسوله يبلغ عنه ولا ينطق عن الهوى"[١٩].

وثمة لفظة شكلت قوة نسقية تأتي بعد ألفاظ الأمر والنهي وهي (واتقوا) أي تجنب سخط الله، والتقوى هي الاجتناب الظاهر واجتناب الباطن من اعمال القلوب وامتثال الظاهر والامتثال الباطن من اعمال القلوب[٢٠] فواو الجماعة هذه مردها إلى (الذين) العامة والشاملة مرة أخرى. لكل الناس من صغيرهم وكبيرهم ورجالهم ونساءهم إلى يوم الدين.

فالأدب مع رسول الله حياً كان أم ميتاً لان فيه الحجة والابتعاد عن نوازع النفس وهذا مفاده انحطاط غواية النفس البشرية تجاه النموذج التشريعي قال تعالى:{وما أُبَرِئُ نفسي إنَّ النفس لأمارةُ بالسوءِ إلا ما رَحِم ربّي إنَّ ربي غفورٌ رَّحيمٌ}[٢١] فعملية الثقة المطلقة بالنص التشريعي المتمثلة بكلام رسول الله (ص) وترجيحها على كل ما سواها إنما تقضي إلى تلمس الحقيقة قال تعالى: { وأمّا من خاف مقام ربه ونهى النَّفس عن الهوى} [٢٢].

والذي لا يتأدب مع الرسول (ص) حياً أم ميتاً هو عرضه لأن يبطل الله سبحانه أعماله من دون ان يشعر وعلى العكس من ذلك عند الاستجابة إلى قول الرسول (كتشريع) لهم مغفرة. فالصوت المقصود لا الصوت الفيزيائي وإنما هو فرض الرأي الذي يملي إلى التفرقة. فحين يلزم المؤمن بهذا الحكم التشريعي فأن باب المغفرة مفتوح إضافة إلى المكافأة وحسن الجزاء. ليضرب الله سبحانه مثلاً حياً على حسن التأدب مع رسول الله قال تعالى: { إنّ الّذين ينادونك من وراءِ الحُجُرات أكثرهم لا يعقلون}[٢٣] أسلوب رباني مهذب لم يقل كلهم لا يعقلون ولا ذمهم ذماً يلحق من سواهم وإنما قال أكثرهم لذواتهم وإنما لفعلهم الذي فعلوه في تلك اللحظة. ثم أرشدهم إلى الصواب وهو نقد ايجاب لأنه مقترن بالبديل الصحيح منه { ولو أنهم صبروا حتّى تَخرج اليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم}[٢٤].

فلم يخرجهم الله من رحمته والله غفور رحيم فهو مؤذن بمغفرته على الفعل والرحمة على المستقبل لأنهم على نفس نسق الآية { يأيها الذين ءامنوا}[٢٥] فالبنية التركيبية للآيات في حالة مستمرة تخلق مجموعة تجاذبات نصية بين آية سابقة وآية تلحقها لتمثل انعكاسياً طبيعياً لحدود تشريعية تشكل حقائق نهائية لكل المشاريع والأفكار البشرية وإيجاد حلول جاهزة غايتها توحيد كلمة المسلمين ونبذ التعصب الفكري لأنه يفضي إلى حقائق لا نهائية تكون مدعاة إلى تحريك تفسيرات متعددة تؤدي إلى خلق جو مشحون بالعداء المستمر اللانهائي.

فالتقيد بتشريع الله سببٌ لكل إصلاح في الأرض. فلا بد من وجود المرجعية التي يرجع إليها الناس عند الاختلاف وقد أؤتِمُن الراسخون بالعلم في المحافظة على التشريع الإلهي وقول الحق.

إن وجود نساقين يحركان النص: الأول هو النسق التشريعي والثاني هو النسق اللغوي يخلق حالة من التماهي بينهما ويشركهما في الفعل الدلالي ذاته فالنسق الأول (التشريع) يسمح بانطلاق المعنى من خلال التأسيس لمعناه المركزي وهذا يدفع المتلقي إلى العيش داخل النسق لخلق تعادلات نصوصية مهمة يترتب عليها ما سيأتي ذكره بوصفه قاعدة ومركز.

وأما الآخر النسق اللغوي فأن يكشف دلالات لصياغات مستقبلية فضلاً عن الآنية في مسائل تخص المؤمنين دون غيرهم للأدراك المسبق يتشعب الارتباطات الفكرية والمعرفية للآخر (المؤمن) وهذا مما يؤدي إلى إحداث اللعب الدلالي (التفرقة) التي حاولت الآيات الأول الابتعاد عنها وتأجيلها لغوياً.

ثانياً: مقاربات النسق وقوانين التعايش

إن منظومة الخطاب القرآني في سورة الحجرات جعلت افتتاحية السورة مركزاً تركيبياً رئيساً لكل المراكز الأخرى، التي تنظم علاقة المؤمن بأخيه المؤمن لأن المركز هو الجزء المهم واللا بديل عنه من التراكيب الأخرى. وهو نقطة لا يمكن استبدالها بأي شيء آخر. (لا تقدموا- لا ترفعوا- ينادونك من وراء الحجرات) شكلت مركز لحركة الدلالة والمعنى لما سيأتي من الآيات. ↖♦✍■❼🗐 { يأيّها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} [٢٦].

وهذا هو السبب الثاني من أسباب التفرقة والنزاع بين المؤمنين هو عدم التثبث والتيقن. وهنا نادى الله بهذا النداء الكريم (يا أيها الذين آمنوا) (إن) أداة شرط تستعمل للمحتمل والممكن ان يقع أو لا يقع[٢٧]. فقد حال الخطاب القرآني ان يستوعب ما قد يحدث مع المؤمنين فهو أمر قد يقع أو لا يقع إلا ان عملية التعامل مع الحدث (إن جاءكم) لابد لها من الحيطة والحذر فالفاسق وهو الخارج عن الطاعة[٢٨] يسعى إلى الافتراء لإفساد الناس وإحداث العداوة بينهم. وبين الله وبين عبده حد من الذنوب يذنب فيتوب فالذي قطع هذا الحد وتجاوز وخرج فكان فاسق. تفضي إلى حكم وهو (التبيين) أي تثبتوا وتأكدوا. وهذا التبيين يتحقق بشرطين هما تحري الدقة في نقل الخبر فـ(الفاسق) لا يُعمل بخبره، قال تعالى:{

واستشهدوا شهيدين من رِجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشُّهداءِ} [٢٩] لان تحري الدقة يحدث سلام مجتمعي وينظم أدب التعامل مع الآخر.

والشرط الثاني هو الرجوع إلى القاعدة الشرعية التي بدأت بها السورة رسول الله (ص) {واعلموا أنَّ فيكم رسول الله}[٣٠] في حياته وبعد وفاته من خلال كتاب الله الذي بلغنا به ورسوله فهو النسق الشرعي الذي يحكم سياق الآيات وإن إنكار هذين الشرطين يؤول إلى الظلم ثم الندم {أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} [٣١]. الجهالة مصدر جهل لجهل العلم ولجهل الحلم. فهذا التصرف الذي لا أساس يبنه تكون نتيجته الندم. هنا رجوع إلى المرجعية (رسول الله) (لو يطعكم) أي لو كان يتبع آراءكم دون الرجوع إلى الوصي لكان ذلك عنت ومشقة وخلاف وتفرقة وقد استدرك الله سبحانه قوله (ولكن الله حبب إليكم الإيمان) فالإيمان يقتضي الرجوع والاستسلام لأمر رسول الله (النسق الشرعي) وقد حبب الله ذلك إلى رسول الله وآل بيته واتباعه. وزينه في القلوب هو زيادة وتأكيد وتعزيز للحب لان من تتوفر فيه هذه الصفة (الحب) لله ورسوله ينقاد إلى المحبوب مطيعاً غير مجادل. { وكرَّه إليكم الكفر والفسوقَ والعصيان}[٣٢] هذه صفات تنتسب إلى (المؤمنون) وفضل الله كبير على المؤمنين الذي دخل الإيمان قلوبهم بأن (حبَّبَ وكرَّه) وهذه إنما تفضيلاً من الله ونعمة (فضلاً من الله ونعمة) وهي عودة مرة أخرى إلى المركز وهو الله سبحانه وتعالى فهو المشرع وهو المتفضل لذا فان النسق الشرعي يوجب جعله مركز كل شيء وهو أصل الموجودات. والنتاجات البشرية وغير البشرية واستحالة استبدال غيره.

إن ترابط الآيات يحيل إلى مسألة مهمة وهي أن من تجليات عدم التبين والتثبت ونتائجها "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا" هو القتال بين المؤمنين فان) هذه حرف شرط جازمة يقع بين الشك واليقين[٣٣]. فقد يقع القتال او قد لا تقع بوصفهم مؤمنين إلا ان البنية التركيبية للآية لا تتنافر مع بنية السورة ككل فان وقع المحضور (القتال) فالبديل هو (الإصلاح) فنسق التعامل بين المؤمنين بفرض هذه الجدلية (القتال/الإصلاح) لتتوالى بعد ذلك صفات بشرية نهى الله سبحانه عنها قال تعالى: { يأيها الّذين ءامنوا لايسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٍ من نساءٍ عسى أن يَكنَّ خيراً منهنَّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئسَ الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتُب فأُلئك هم الظلمون} [٣٤] فهي صفات اقرب ما تكون إلى الفسوق وحفريا السخرية إنما هي دليل على سخرية الانا من الأنا قبل سخريته من الآخر لأنه يخرج الساخر ما في قلبه من مكنونات قلبية تجاه الآخر ليحاول ان يواري عوراته وهي تغطية للساخر وما فيه من نقائض وعيوب كي يخفيها عن الاخرين وأساسها الكِبَر فعندما يرى الساخر نفسه كبيراً يرى الاخرين صغاراً السخرية إنما هي هدم لبناء هدم الآخر لبناء الانا وهذا مرض اجتماعي يؤدي إلى خلق العداوة والبغضاء بين الناس وعلاجه بلا شك هو التوبة التي لا تتم إلا بترك الفعل وإقامة ما تم هدمه أي بناء الآخر. فالساخر يترك الوظيفة الشرعية التي أقامها الله لعباده فيخرج عن دائرة النصيحة إلى الفضيحة ومن التصريح إلى التجريح. أي ترك وظيفته بان يكون داعية للخير { أدع الى سبيلِ ربّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ} [٣٥] والملاحظ أن اللآية أفردت للنساء حوار والله تعالى اعلم. قد يكون لتفشي هذه الظاهرة عند النساء أكثر، لذا اقتضت حكمة الله تعالى التنبيه. فخطورة السخرية توصل الساخر الى أن يكون إبليس النزعة فإبليس تكبر والساخر متكبر { وإذ قلنا للملائكةِ اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكفرين}[٣٦].

لذا فأن الله سبحانه أمرنا بإلغاء الكبر لأنها صفة من صفات الله سبحانه. فالله يأمر بمعاملة الآخر على أساس الإخوة لا على أساس تنصيب الانا كرب متحكم بالآخر. قوله سبحانه { عسى أن يكونوا}[٣٧] فعسى هو فعل يفيد الترجي في أمر محبوب وهذا من لطف الله سبحانه ان يترجى خيراً في أمته حتى وإن ظهر منهم خلاف ذلك.

لو ان الإنسان وضع لنفسه وظيفة حب الله حباً شديداً وحب الناس حباً كثيراً وان يوصل حب الأول بحبه للثاني لا تبعد عن الصفات التي تؤدي الى العداوة فاللمز وطعن بعضكم بعضاً والتنابز بالألقاب المستكرهه ما هي إلا آفات يحيل بعضها إلى بعض فالمعصية إن لم تقابل بالتوبة "ومن لم يتب" فإنها تؤدي بصاحبها إلى الظلم والله تعالى يخرج الظالمين من رحمته قال تعالى: { وقالَ الَّذين كفروا لن نؤمنَ بهذا القُرءان ولا بالَّذي بين يديه ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم} (٣٨) فالله سبحانه يقرن الظالمون بالكفر دائماً فالآية تحذر من الظلم لان الخطاب الإلهي موجه إلى المؤمنين والسخرية واللمز والتنابز يخرج المؤمنين من مظلة الإيمان إلى مظلة الفسوق والظلم والخطاب لا زال موجهاً للمؤمنين وإلا انه امرٌ موجه هذه المرة وغير مشكوك فيه قال تعالى: { يأيها الَّذين ءامنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنَّ بعض الظَّنِ إثم ولا تجسسوا ولا يَغتَب بَّعضكم بعضاً أيحب أحدُكُم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه وأتقوا الله إنَّ الله توابٌ رَّحيم} (٣٩) فهناك أمرٌ (اجتنبوا) مرتبط بـ(واو الجماعة) أي الظن واقع لجميع المؤمنين يولد هذا ثنائية (الحضور/ الغياب) فحضور الظن مرتبط بغياب الأجر لتكون الثنائية (الظن/ الإثم) فالظن مرض اجتماعي يزلزل أمن المجتمعات ويهدد استقرارها وهذا لا يبغي الفعل على (ظنونيته) إن صح التعبير وإنما يؤول إلى معصية اكبر وهو (التجسس) الذي كان سببه بعض الظن وبعضه أفضى إلى صفة مكروهة اجتماعية وتشريعياً وهي التجسس لتشكل الصفة الثانية جانباً سلبياً للصفة الأولى. وهي نتيجة من نتائجها المرجوءه فحسن الظن هو الأصل لأن الخطاب للمؤمن إلا أن سياق الآية يخلق تجاذبات نصية بين البنية الكلية للسورة وبين الآيات. فالظن عتبة شعورية للدخول في عمل مؤجل التجسس/ الغيبة لتغدوا عملية توالد لمعانٍ مستمرة رغم اختلافيتها اللفظية إلا أنها تبقى مؤجلة وتظل محكومة بنسق متوالي لا يعرف الثبات والاستقرار وكل هذا يشحن الدوال (الظن–التجسس–الغيبة) ببدائل ومدلولات تعطي حلولاً (دينية/ اجتماعية) متمثلة بـ(بالتقوى) (٤٠) وهذا يكشف أن عملية هدم المعايير الخلفية محكومة بنسق البناء لوصفهم (مؤمنين) لتغدو هذه التشكيلة الإيمانية تحال إلى معنى أوسع واكبر وهو (التقوى) لأنه البديل والحل لبناء ما تم هدمه قُدماً فهو لتنزيه القلب من الذنوب والمعاصي لتشكل بنية الآيات ثنائية توافقية لا تضادية لبدائل قادرة على إيجاد صيغة للتعايش السلمي بين افراد المجتمع.

وليشكل المركز (الله سبحانه ورسوله (ص)) الثابت في أحقيته سبحانه بالعبادة (ولا تقدموا/ ولا ترفعوا) التي كانت تفرض السلطة النصية على الآيات التالية فالرجوع إلى المركز (الله ورسوله) هو الحل لكل التناقضات الاجتماعية والسلوكية للمؤمن ولغيره. ويشكل (التثبت والتيقن) نسق فرعي يتحكم بالمعنى ويشكله بالتشكل الآتي:

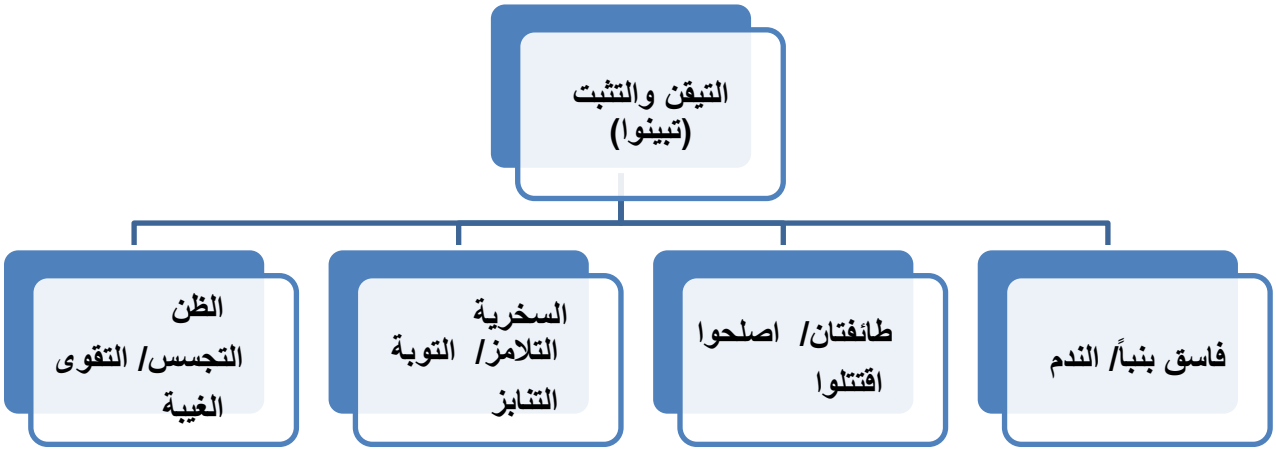

يتجه الخطاب من التخصيص إلى التعميم لتحويل مسار السلطة الدلالية من { يأيها الّذين ءامنوا}[٤١] إلى { يأيها الناس}[٤٢] بوصف الناس أكثر شمولية. فكلا المخاطبين يخضعان إلى سلطة نسقية خارجية وداخلية للتموضع في بنى تحيل إلى مدلولات أكثر سعة وشمولية للآخر فقوله سبحانه { يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ}[٤٣]. هو أسلوب فيه تحبب إلى الآخر المؤمن وغير المؤمن فهي نظرة خالية من التطرف موجهة من الأعلى إلى الأدنى وهو نسق خارجي. لكسب المعنى من جانب المتلقي (الناس) كي لا يستثني أحداً في بنية السورة فالخطاب هو أسلوب للتعايش الاجتماعي وللناس جميعاً من الذكر والأنثى فسياق الآية يوجب الانقياد والتبعية للأمر الشرعي فيعود لسلطة النسق وجوده من مرة أخرى (لا تقدموا/ لا ترفعوا أصواتكم) لأن الخطاب القرآني خطابٌ متماسكٌ اتخذت فيه الآيات نسقاً متدرجاً كي يتشكل نصاً منسجماً مع غايته الأساسية فعملية التخصيص الأولى وما تضمنته من اخلاق وآداب خاصة بالمؤمنين الذين استقر الإيمان في قلوبهم تملي على النص ان يتوجه بالخطاب إلى عموم الناس، فهذه السورة نزلت في المدينة وكانت تشمل المسلمين وغيرهم. قال تعالى { إذ خلقناكم من ذكرٍ وأنثى} [٤٤] دليل على مرجعية البشر جميعاً إلى حال وصدر واحد وثم تفرعتم إلى "شعوباً وقبائل" لتكون هناك مهمة للخلق جميعاً وهي "لتعارفوا" وهو فعل من أفعال المشاركة أي ليبذل كل واحدٍ منا المعروف اتجاه الآخر. وهي مهمة مطلقة للبشرية جمعاء دون تخصيص، لأن المهمة الإنسانية هي إدامة المعروف وتبادله بين الناس مؤمنهم وغير المؤمن فهو ميثاق بشري وثقه الخطاب القرآني، لأن الاختلاف أساس الوجود فآيات الله في الاختلاف شاملة للوجود الكوني من(الذكر/ الأنثى، الليل/ النهار، الصيف/ الشتاء) فقوله تعالى "إن أكرمكم عند الله اتقاكم" فالتقوى هي أن لا يجد الله عباده حيث نهاهم وأن لا يفتقدهم حيث أمرهم فموطن التفاضل هو (التقوى) فالنص يقدم (التقوى) على متلقيه ليثير دلالات مستقبلية فضلاً عن الآنية لتكون البؤرة الأساس التي ينطلق منها الآخر (يا أيها الذين امنوا/ يا أيها الناس) ف(لتعارفوا) هو أن يجد الله عباده في أماكن المعروف المتبادل، وأن لا يجدهم في أماكن (السخرية–التلامز–التنابز–الظن–التجسس–الغيبة) فالتقوى حالة من الوعي البشري على الإنسان المحافظة عليها وتحكيم تصرفاته (التثبت/اليقين).

ومن هؤلاء الناس هم الاعراب (مناسبة السورة) قال تعالى { قالت الأعراب ءامنا قل لّم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمن في قلوبكم}[٤٥] فهؤلاء الاعراب هم الأثر الدلالي للنص لان فيه يتحرك الدال والمدلول (الإسلام) وغياب الدليل (الإيمان) إلا ان الآية تنبئ بمفهوم المغاييرة لقوله سبحانه { وإن تُطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إنَّ الله غفورٌ رحيم}[٤٦] ليجعل الخطاب القرآني إطاعة الله والرسول عودة لاستحكام النص لأنه حكم شرعي {إنما المؤمنون الّذين ءامنوا بالله ورسوله ثمَّ لم يرتابوا وجَهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أُولئك هم الصادقون}[٤٧].

فهذا هو الإيمان المقصود لتُختم السورة بآية العلم { إنَّ الله يعلمُ غَيب السموات والأرض والله بصيرٌ بما تعملون}[٤٨] فسلطة الخطاب الإلهي تحكم بنية النص من أوله إلى آخره فهو أمر بمحاسبة النفس.

الملاحظ من بنية الآيات أنها متوافقة لذاتها ولغيرها والهدف من ذلك هو القدرة على توصيل المعنى الدلالي الموجه إلى الآخر (المؤمن/ الناس) والمتسم بالاستقرار والتنظيم لاستثمار فعل التراكم المعرفي الناتج من حوار (المركز/ الله سبحانه) للآخر ليسهم في تشكيل المناخ الفكري المحيط بمعطيات إلاهية تنظم المجتمعات وتبعدها عن مزالق التطرف والتعصب الديني والاجتماعي.

الخاتمة

١- تشكل سورة الحجرات من ثماني عشرة آية، تقع بعد سورة الفتح، وقد تضمنت حقائق كثيرة من العقيدة والتشريع إلى التعايش الإنساني.

٢- مارست سورة الحجرات دوراً نفعياً للناس جميعاً من خلال التأسيس لأخلاقيات وآداب بين المسلم والله سبحانه والرسول (y) وبين المسلم وأخيه المسلم.

٣- تتجه السورة إلى توجيه خطاب مخصوص إلى أخر نسقي له مساران لسلطة الدلالة النصية الأول لتمحور في البنية الخارجية للنص وتتمثل في الخطاب الموجه من الله سبحانه إلى الآخر ألنسقي، ويتشكل الآخر في بنية النص الداخلية بوصفها صياغات تسهم في كشف عما ورائية اللغة والتراكيب.

٤- تتكون بنية الخطاب الداخلية من نسق مخصوص (المؤمنون ونسق العموم (الناس).

٥- يشكل الخطاب نسقاً رأسياً داخلياً ليكون (المركز) الذي تتمحور حوله كل الصياغات المعنوية للآيات التالية.

٦- تمارس القاعدة التشريعية (لا تقدموا/ لا ترفعوا) سلطة نسقية تتفرع منها كل التشريعات الأخرى.

٧- عدم الالتزام بسلطة المركز تفضي إلى النزاع والتفرقة والخلاف لذا فان مركز الآداب بجده المسلم في كتاب الله ورسوله الكريم (y).

٨- شكلت لفظة (التقوى) قوة نسقية تضاف إلى قوة ألفاظ الأمر والنهي التي تكونت من تراتب الآيات.

٩- اقترنت أوامر النهي في السورة بالبدائل الصحيحة التي تعيد النسق إلى مركزيته حتى وإن خرج عنها "والله غفور رحيم".

١٠- إن استمرار حركة النسق يخلق تجاذبات نصية بين آية وأخرى فالخطاب يتوجه إلى المؤمنين ليشكل (التبيين والتثبت) نسقاً فرعياً يسيطر على انساق التعايش بين المؤمنين وغيرهم من الناس.

١١- تحري الخير (التبيين والتثبت يُحدث سلام مجتمعي وينظم أدب التعامل مع الآخر.

١٢- يعود النسق المسيطر يفرض سلطة على الخطاب "اعلموا أن فيكم رسول الله" إلى (لا تقدموا/ لا ترفعوا) لإحكام السيطرة على المعنى.

١٣- تتوالى المعاني النسقية للآية بعد تشكل الأنساق المضادة للإيمان إلا أنها سرعان ما تعود إلى النسق المركز لوجود البدائل التي شرعها الله سبحانه حال الخروج عن بؤرة الإيمان.

١٤- إن السيطرة النسقية الفرعية لـ(تبينوا) تجد الحلول لكل التناقضات الاجتماعية التي قد تحدث لتكوين ثنائيات تبادلية.

فاسق	**الندم**
نبأ	
طائفتان	**أصلحوا**
اقتتلوا	
السخرية	**التوبة**
التلامذ	
التنابز	
الظن	**التقوى**
التجسس	
الغيبة	

١٥- مرجعية البشر جميعاً إلى حال واحدة، ومصدر واحد (ذكر/أنثى) ومهمتهم الإنسانية تكمن في التعارف (لتعارفوا) وهو من أفعال المشاركة أي ليبذل كل واحدٍ من المعروف تجاه الآخر.

١٦- مناط التكريم لا يكون على أساس الجنس واللون وإنما على أساس (التقوى) النسقية.

١٧- عودة سلطة النسق "إن تطيعوا الله ورسوله" لاستحكام النص بوصفه حكماً شرعياً لا بديل له.

١٨- بنية الآيات متوافقة لذاتها ولغيرها والهدف من ذلك هو القدرة على توصيل المعنى الدلالي الموجه إلى الآخر (المؤمن/ الناس) لاستثمار فعل التراكم المعرفي الناتج عن حوار (المركز/ الله سبحانه) للآخر.

الهوامش

(١) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم، جماعة من علماء التفسير، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط٣، ١٤٣٦: ٥١٥. وينظر: مختصر تفسير ابن كثير، اختصار: محمد كريم راجح، دار المعرفة، بيرون، لبنان، ط٧، ١٩٩٩: ٥٢٧/٢.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط٩: ٣٣٣٥/٦ للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط١، ١٩٩٦: ٤٥.

(٣) التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم. ومعه أسباب النزول وقواعد الترتيل، أ. د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، سوريا، د. ط، د. ت: ٥١٦.

(٤) ينظر: فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، محمد عابد الجابري، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٩: ٣/ ٣٢٦.

(٥) الحجرات/ ١.

(٦) لاستكناه اثر المدنية على الدين ينظر: تأملات في القرآن الكريم، ابو الحسن علي الحسني، دار القلم، دمشق، دار الشامية، بيروت، ط١، ١٩٩١: ٣٧-٣٨.

(٧) ينظر: إعراب القرآن الكريم الميسر، محمد الطيب لإبراهيم، دار النقائس، بيروت، لبنان، ط٤/ ٢٠٠٩: ٥١٥.

(٨) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٠٦.

(٩) سورة الحجرات/ ١.

(١٠) الحجرات/ ٢.

(١١) الحجرات/ ١٣.

(١٢) الحجرات/ ١٤.

(١٣) النجم/ ٣.

(١٤) الحجرات ٢.

(١٥) الأحزاب/ ٣٦.

(١٦) الحكمة المطلقة، عدنان الرفاعي، دار الفكر، دمشق، سوريا، د. ط: ١٦.

(١٧) الحجرات/ ١.

(١٨) الحكمة المطلقة: ١٧٠.

(١٩) نظم الدور في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي البقاعي (ت ٨٨٥)، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥: ٧: ٢٢١.

(٢٠) ينظر: التقوى في القرآن الكريم، دراسة موضوعية، نبيل محمد حمد، جامعة النجاح، ٢٠٠٨: ٣٣.

(٢١) يوسف/ ٥٣.

(٢٢) النازعات/ ٤٠.

(٢٣) الحجرات/ ٤.

(٢٤) الحجرات/ ٥.

(٢٥) الحجرات/ ١.

([٢٦]) الحجرات/ ٦.

([٢٧]) ينظر: الكتاب، أبي بشر عمرو بن عثمان الملقب بـ (سيبويه)، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٣: ٣/ ٦٠. وينظر: المقتضب للمبرد، تح: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان: ٢/ ٥٦.

([٢٨]) ينظر: لسان العرب، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور)، دار صادر، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت: باب ف.س.ق.

([٢٩]) البقرة/ ٢٨٢.

([٣٠]) الحجرات/ ٧.

([٣١]) الحجرات/ ٦.

([٣٢]) الحجرات/ ٧.

([٣٣]) ينظر: إعراب القرآن الميسر، ٥١٦.

([٣٤]) الحجرات/ ١١.

([٣٥]) النحل/ ١٢٥.

([٣٦]) البقرة/ ٣٤.

([٣٧]) الحجرات/ ١١.

([٣٨]) سبأ/ ٣١.

([٣٩]) الحجرات/ ١٢.

([٤٠]) ينظر: بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د.ط: ٥/ ٢٥٧-٢٥٨ . وينظر المستدرك على الصحيحين، ابو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النسيابوري، غ: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠.

([٤١]) الحجرات/ ١.

([٤٢]) الحجرات/ ١٣.

([٤٣]) الحجرات/ ١٣.

([٤٤]) الحجرات/ ١٣.

([٤٥]) الحجرات/ ١٤.

([٤٦]) الحجرات/ ١٤.

([٤٧]) الحجرات/ ١٥.

([٤٨]) الحجرات/ ١٨.

المصادر

- المختصر في تفسير القران الكريم، جماعة من علماء التفسير، مركز تفسير الدراسات القرآنية، ط٣، ١٤٣٦.
- مختصر تفسير ابن كثير، اختصار: محمد كريم راجح، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٧، ١٩٩٩.
- تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٠.
- إبعاد غائبة عن فكر الحركات الإسلامية المعاصرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط١، ١٩٩٦.
- في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط٩.
- التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم، ومعه أسباب النزول وقواعد الترتيب، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ط، د.ت.
- فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، محمد عابد الجابري، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٩.
- تأملات في القرآن الكريم ابو الحسن علي الحسيني، دار القلم، دمشق، دار الساهية، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- إعراب القرآن الكريم الميسر، محمد الطيب الابراهيم، دار نقائس، بيروت، لبنان، ط٤، ٢٠٠٩.
- الحكمة المطلقة، عدنان الرفاعي، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ط.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين التقاعي، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥.
- التقوى في القرآن الكريم –دراسة موضوعية–، نبيل محمد أحمد، جامعة النجاح، ٢٠٠٨.
- الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٣.
- المقتضب، للمبرد، ح: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- المستدرك على الصحيحين، ابو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النسيابوري، غ: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠.